في مقالتي الماضية وجوه المفاضلة وبينت طرقها ثم ادخلتك الى غرفة واحدة من غرف معرض الي تمام وصادخلك الى غرفة مشحونة بالوان مختلفة من نفس هذا الصنف ونكتها من معرض البحتري وبعد ذلك افتح لك باب غرفة لهُ أخرى من معرض المتنبي ولا ازيدك على هذا فاختر لنفسك ما يجلو

سعيد الخوري الشرتوني

البقاء (الخلود)[1]

ايها الأدباء اني لا أقصد بهذه المقالة الاَّ مجرَّد البحث والتنقيب عن الحقائق وتنبيه افكار البعض من رفقائي الى اتخاذ البحث في استنباط الحقائق رائدهم والاستقراء والمقابلة مرشدهم والى عدم الاعتصام بحبال الأولى تاهوا عن المحجة الفضلى بان سطروا للناس مفاسف وترهات هي من الحقيقة براء كما جرى لاحدهم اذ كان يدافع عن مذهب دارون ولا اعني ان هذا المذهب وهم على اساس موهوم بل ان المدافع نفسهُ لم يكن يفقه منهُ اكثر مما يفقه بائع الخمر والمرطبات او كما قال احدهم ما كتابات فولتير الاَّ وحي هبط على قلب ذلك النبي فالذين من هذا الصنف في الغالب لا يتمون الى دارون او الى سبنسر او الى بختر لانهم ارضوا معالم الحقائق بل لاعتقادهم ان ذلك ينيلهم فخرًا عظيمًا وكان الاجدر بهم ان يعتصموا بالحقائق كما تظهر لهم بعد البحث والتأمل الطويل لا كما بدت لهذا او لذاك . ثم ان هذا الموضوع عسر البرهان فلا استطيع ان اقنع بهِ المكابر بالبراهين عنهُ كما اقنعهُ بان اثنين واثنين تعدل اربعة او ان ثقل الرطل عبارة عن جذب الارض لتلك المادة بقوة رطل ولكني استطيع ان اقرب لهُ الاعتقاد بالخلود من وجهٍ عليٍّ . وعليهِ اقول

ان التركيب والتحليل في عمل الطبيعة يعلمانا ان لا فناء في عالم المادة فان الصخور الخاضعة للفواعل الطبيعية من هواء ومطر وثلج وصقيع يتفتت منها اجزاء على غاية الصغر ولا يفقد منها جزء واحد حتى لو هبط الى قعر الوديان او الى اسفل البحر العظيم وهذه ترسب في الاماكن الغائرة حيث تتماسك وترجع صخورًا شاهقة تطحن الجوزاء . وان الاصوات على تباين شدتها التي ليست الاَّ اهتزازات في دقائق الاجسام الصائتة غير قابلة للفناء فانك اذا أحدثت صوتًا برفع اقدامك هنا فتنتقل الاهتزازات الى ما يجاورها من اقسام الارض وتتقدم

(١) هذه المقالة تلاها حضرة الاديب علم الندي ابرهيم فريحه في احدى جلسات الجمعية العلمية الغربية في المدرسة الكلية ببيروت

من دقائق الى اخرى وتعود فتراجع دورتها ولا تنتهي الاَّ بانتهاء المادة . ايضاً ان كمية الشيء التي تحرقها فلا يبقى منها جزء حتى ولا جوهر من جواهرها الفردة لانهُ لو امكن لك ان تجمع ما تصاعد من الغازات وما بقي من الرماد ووزنتها جميعاً لوجدت الثقل الاصلي بعينهِ . ونفس الناموس ينطبق برمتهِ على ما يدخل الى جوف الانسان حيث يلحقهُ التغير النرعي والكمي كما يظهر . وما يدخل الانجار من الغازات والسوائل والجوامد وما يفور من المياه في قلب الارض الخ . ففي هذه كلها عبرة للمفكرين . كذلك ذرة الهباء ونقطة الماء لا تعرفان فناء ولا تخشيان انقضاء اجل . والعناصر البسيطة التي تؤلف المركبات (كالاكسوجين والكوربن والصوديوم والكل والذهب الخ) لا يفقد جوهر من جواهرها فاذا غاب احدها من هذا المركب فلا بدَّ من وجوده في المركب الآخر والخلاصة ان العلوم الطبيعية وارباحها يثبتون البقاء بالتجارب والادلة الحسية

لقد أجمع عماء العقليات (السيكولوجيين) على ان القول في تساوي نهاية الحياة وبداءتها لامر بعيد المتناول يدق على الاذهان ادراكهُ ولكنهم يعتقدون بان القوة التي تسمى لها ان تعطينا الوجود لقدر ان تمنحنا الخلود ايضاً ويعتقد بعضهم ان الغرض من الجسم الحيواني في الانسان هو ان يوصل مشاعر النفس وافكارها وما يصدر عنها بالعالم المادي وبأن النفس تقدر ان تتمَّ عملها بدون تداخل الاجسام المادية وبأن هذه الحياة ليست غاية في ذاتها بل ذريعة الى حياة افضل . ولا لزوم ان اذكر القارئ الكريم باعتقادات شيوخ الفلاسفة مما يتعلق بخلود النفس كسقراط وافلاطون ومن شاكلهما ولي على خلود النفس ادلة بسيطة اوردها بغاية الاختصار

اولاً الميل الطبيعي . خذ الفلاح ذلك المخلوق الساذج واعتبر حياتهُ فانهُ حينما يستغل محصولاتهِ يفرز منها ما يحتاج اليهِ ثم يبدل الباقي بذهب لعلمهِ ان هذا ابقى من الحنطة ثم يبدل الذهب بما هو ابقى منهُ كالفرس حيث هذا لا يسرق ولا يصرف بسهولة ثم يبدل الفرس بالعلم الذي هو ابقى مما ذكر وان اثمارهُ دانية القطوف دائمًا ابداً وجنة العلم لا تذوى ولا تذبل كبنان النبات واعتبر ذلك في امر الملبوس فان الانسان ينتقي القماش القوي الباقي ولو كلفهُ مقداراً عظيماً من الدراهم . ولا يغرب عن الافهام ان الاهرام المشهورة والمعاهد الفخيمة التي شادها الاقدمون والكتابات على الصخور والاعمدة والقبور وتلك الاسوار المدهشة والحيط والحجائب البيع كلها ادلة دامغة على ان الانسان مدفوع بعامل الفطرة الى محبة البقاء . استقرِ اديان البشر ولاحظ الشرائع في الاعتقادات وكتب

العبادة واسلوب الصلاة والطقوس والاعياد وكثرة الآلهة يدلّ انهم كلهم يجمعون على ان نهاية هذا الوجود هو الخلود

تأمل الاشجار وجميع انواع الازهار تدرك معنى دقيقاً من معاني الطبيعة الا وهو البقاء فان الاشجار تثمر وتبزر بزراً حتى اذا ما ذوت الشجرة كان لها غنى عنها بهاتيك البزور . وفي ظهور النسل من الجيل الاول الى الجيل الآخر بحيث تحفظ القوى الخافية والملامح والهيآت والالوان عبرة لذوي الالباب ليظهر مما تقدم بيانهُ ان كل الطبيعة يتمّ بالبقاء وثبوت نواميسها يصرح بعدم الفناء وان الانسان نبيّ ذاتهِ ومعلن اسرار طبيعتهِ ويرى ان اعلان طبيعتهِ في البقاء

ثانياً في ان الحياة الارضية ناقصة . ان من نظر بعين فتادة الى افراد المجتمع الانساني من حيث مراكزهم ومعاملة بعضهم لبعض وسير ذلك بمقياس الحكمة والاعتبار وصل الى نتيجة مرموز عنها بثلاث كلمات وهي استبداد . ظلم . محاباة . وغاية ما تنتهيُ هذه الكليات هضم حقوق الضعفاء وامتهانهم وشن الغارة على قليلي العدد واجتياح بلادهم وترقية المداهنين والنظر اليهم بعين الرضى . هذه هي نظرة في سكان القبراء وهذه هي الحقيقة التي اودّ ان استخلصها : ان لجعل البشر من حيث الحقوق والواجبات سواء فلواحد من الحقوق وعليهِ من الواجبات ما للآخر وعليهِ ولما لم يكن يتسنّى ذلك هنا لزم بشرع العدل لهذه الحياة اصلاح اعني بهِ البقاء

ان من احصى اعمار البشر علم بان قسماً كبيراً منهم يموتون في سن الطفولية او قبل الحلم والرشد فالبصير الحكيم لا بدّ ان يسأل هذا السؤال وهو الا تفتح هذه البراعم في مكان آخر حيث انها قطعت قبل اوانها ؟ لان الغاية من البراعم ان تصير ازهاراً جميلة تعطر بشذاها الارجاء ! واذا كانت الحالة كذلك فهذه الحياة ناقصة والاختلاف الظاهر بين البشر في الصفات والسجايا يدفعنا الى الاعتقاد بالبقاء لحصل الاصطلاح والمساواة

الانسان يدرك الفضائل في ذهنهِ ادراكاً تاماً ويستعملها مقاييس يقيس عليها فضائل البشر وتراهُ كثيراً ما يقول ان ذلك صحيح يمقتهُ السواد الاعظم من الناس وهذا سريع الغضب كثير العطب وان محبة ذاك ناقصة مشوبة بالنسبة الى المحبة الكاملة المرسومة في ذهنهِ ولا تفتأ صفات الانسان ناقصة مهما اصلحت بالتربية والانذار لاشارة ان القلب المفعم بالحب لا يكون فيهِ سخيمة ولا غضب ولا حسد ولا دهاء وهذا متعذر على سكان القبراء وهكذا قل في الصداقة فانك ترغب ان يكون صديقك صادقاً لا يبدي اقلّ خشونة يعاملك

كذاتهِ شأن الصديق الكامل ولكن لا تعتم ان ترى منهُ نشوزاً وصدّاً وهجراناً واجفاءً يحقق قولنا ان اصلَ الكامل ثالث المستحيلات فهذا النقص العام لا بدَّ لهُ من كمال اذ الكمال نتيجة لازمة لادراك النقص

ثالثاً في معرفة الاسرار وماهيات الحقائق . اجل لقد صدق ذلك الفيلسوف الحكيم القائل اني الآن اعرف بعض المعرفة ولكني اخيراً سأعرف كما عرفت . قالت العلاَّمة الاستاذ هكسلي ان الطبيعة تبسط امامنا قضايا كثيرة وتعلب مناحلها فاذا شرعنا نتأملها وجدنا انفسنا ازاء من اللادريين . معارف الانسان لا تزال ناقصة وعقلهُ يكتنه الحقائق وماهيتها سخيّ فالنقص بتاً ملازماً لهُ مهما تمجد قريحتهُ على سنّ التجارب ومهما زادتهُ السنون حنكةً وخبرة

ان معالم الحقائق التي اوضحها العلماء ليست بإزاء المجاهل الشاسعة الاَّ كزهوهباء في قلب الصحراء . قالت مبلسر قطب دهره ان كنه الحقائق يزداد غموضاً كلما زدنا فيهِ بحثاً فهو كالظلمة الدهماء التي تقصد ان نمزقها بشعاع شمعة ضئيلة . وعلى ما يخيل لي ان حياة العالم الطويلة تشيء قضايا معضلة اكثر مما تحل فتراهُ يعلل النفس بأمل حلها في المستقبل العاجل . فاذا اعتبرنا ما تقدم بيانهُ وجب الاعتقاد بالخلود لتتمتع النفس بالحقائق التي كانت تجهلها وتدرك كنهها وماهيتها ادراكاً كاملاً

رابعاً الناموس الطبيعي كل شيء في الطبيعة مزدوج الواحد ضد الآخر فهو نور وظلمة راحة وتعب سعادة وشقاء والطبيعة لا تعرف الوجوه بل تعمل بالعدل ولا تخاف لوماً ولا ترهب وعيداً وكأن لسان حالها يخاطب الشمس قائلاً انت يا ملكة النور ومصدر الحياة اعلمي بانك لو خرجت عن السبيل المستقيم لاسقطت بك الى قعر الجحيم وهي تنادي كل عمل لا بد لهُ من جزاء وان خفي على الناس فعليّ لا يخفى حيث اني ارى ما يُرى وما لا يرى . ألا تبصر كيف اذا اغفلتَ حذيك لقيت هواناً وان ضربت زيداً لزمك القصاص ولا تنسَ انك تحاسب على افكارك ونياتك كما تحاسب على سلبك ونهبك فان المحاسبة على الاثام للاثام والمحاسبة على الافكار للذي يحكم على الاقدار فالواجب لا يترك حقهُ وحكمهُ لا ينفذ الاَّ في محكمة البقاء